المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة
المجلس العلمي
١٢

طريقة كمية لدراسة معاجم التراجم الإسلامية في العصور الوسطى

بقلم

رجارد و. بليت

ترجمة

شاكر نصيف العبيدي
الأستاذ المشارك بكلية الآداب - جامعة بغداد

مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

١٤٠٤هـ

طريقة كمية لدراسة معاجم التراجم الإسلامية
فى العصور الوسطى

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

بقلم
د/ أكرم ضياء العمرى
رئيس المجلس العلمى

الحمـد لله حق حمده والصـلاة والسـلام على من لا نبي من بعده وعلى آله وصحبه ومن تبعه الى يوم الدين .

أمـــا بعـــد :

فقـــد اطلعت على هذا البحث الـذى كتبـه الأستـاذ/ رجارد بليت باللغة الانكليزية ونشره فى مجلة تاريخ الشرق الاقـتـصـادى والاجـتـماعـى فى سنـة ١٩٧٠م بعنـوان : (Aquantitative approach to medieval muslim biographical dictionaries.) وقـد أعجبتنى النتائج الجريئة التى وصل إليها من خلال استخدام الطرق الاحصائية فى دراسـة تراجم رواة الحـديث فى نيسـابور التى ضمها كتابا الحـاكم النسيـابـورى (ت٤٠٥هـ) وعبـد الغافر الفارسي (ت٥٢٩هـ) وقد تبدو بعض الملاحظات متعسفة ، ولكن منهـج البحث يبـين جدوى استخـدام الطـرق الكميـة فى

الدراسة التاريخية أحياناً وخاصة فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية التى نحس بفقر مصادرنا فيها ، فى حين تتضخم فيها الجوانب السياسية والأدبية .

فقد تمكن الباحث ببراعة من الوصول إلى الطرق المسلوكة نحو نيسابور فى القرون الهجرية الخمسة الأولى وحجم حركة النقل عليها من خلال الدراسة الكمية لنسبة العلماء إلى المدن كما توصل إلى متوسط عمر العلماء فى تلك الحقبة وهو ٧٥ سنة ميلادية . وقد استعان الباحث بالرسوم البيانية ، وحاول مطابقة النتائج الاحصائية بالمعلومات التاريخية التى تقدمها كتب التاريخ العام . موضحا أثر الأحداث السياسية على النشاط الاقتصادى وخاصة حركة النقل البري من نيسابور وإليها ، وظهور قوة مدن أخرى تنافسها سياسيا واقتصادياً مثل بخارى فى عهد السامانيين بالاضافة إلى أثر تنامي استقلال خراسان عن الخلافة العباسية ببغداد مما يضعف حركة التجارة بين المركزين . مع الإشارة إلى أثر الصراع بين السامانيين والبويهيين والغزنويين والسلاجقة على حركة النقل والتجارة فى المنطقة .

ونظراً للجدة فى منهج المؤلف فى نطاق الدراسات التاريخية العربية وللطرافة فى نتائج البحث مهما بدا فيها من

تعسف أحيـانـاً فقد اقترحت على الأستاذ الفاضل/ شاكر نصيف لطيف العبيدى القيام بترجمة هذا البحث إلى اللغة العـربيـة فقام بذلك مشكوراً وطلب مني أن أسجل بعض التعليقـات الضـروريـة دفعـاً للبس أو إيضاحاً لوهم ربما حصـلا بسبب ثقـافـة الكـاتب الغربية وعدم وضوح معالم الثقـافـة الإسـلاميـة فى ذهنـه بدقـة ، وقـد تبنى المجلس العلمى فى الجـامعـة الإسـلاميـة بالمـدينـة المنورة نشر هذا البحث خدمة لمحبي الدراسات التاريخية ، والله من وراء القصد .

طريقة كمية لدراسة معاجم التراجم الإسلامية في العصور الوسطى

(بحث بقلم رجارد و . بليت ، نشر بالانكليزية في مجلة تاريخ الشرق الاقتصادي والاجتماعي ـ المجلد الثالث عشر ـ الجزء الثاني ـ نسيان ١٩٧٠) .

ترجمة شاكر نصيف لطيف العبيدي / الأستاذ المساعد في قسم اللغات الأوربية / كلية الآداب / جامعة بغداد .

مقـــــدمـة

إن الغــرض من هذا البحث هو استكشـــاف طريقـــة لدراسة معاجم التراجم الإسلامية فى العصور الوسطى[1] ـ والتى ستكـون ـ حسب اعتقـادي ـ ذات فائـدة عظيمـة للمؤرخ الاجتماعي والاقتصادي .

إن الأسـاس الـذى تقـوم عليه هذه الطريقة هو تركيب معـاجم الـتراجم تلك وطريقة تأليفها . وبالطبع فإن هذه المؤلفـــات يختلف بعضهـــا عن البعض الآخـــر اختـلافـاً كبـيراً . إنهـا تختلف من حيث موضـوعـاتهـا الأسـاسية ، فبعضها يدرج أسماء أصحاب النبي (ﷺ) وبعضها يذكر جميـع العلماء المقيمـين فى مدينـة معينـة أو المنتمين إلى فرقة دينيـة معينـة ، وبعضها يذكر جميع الأشخاص الذين توفوا فى قرن معين ، وهكذا دواليك . كما أنها تختلف من حيث التنظيم فبعضهـا يتبـع حروف الهجاء بدقة وبعضها مقسم

على أساس الفترات التاريخية المتعاقبة وبعضها مقسم إلى طبقات قائمة على أساس زمنى[٢] ، ولكنها تستند فى جوهرها على آراء شخصية ، كما أنها تختلف أكثر من ذلك فى المحتويات الأساسية للتراجم الفردية . إن الصفة الوحيدة التى تشترك فيها جميع التراجم تقريباً فى المسألة الأخيرة هى أنها قلما تتضمن معلومات عن سير الأفراد مما يعتبر ذا أهمية تاريخية . ومع ذلك فإن هناك صفات معينة تشترك بها هذه التراجم مما يجعلها ذات قيمة بالنسبة للمؤرخ . إن الصفتين المهمتين من هذا النوع هما توفر كمية من المعلومات المتعلقة بالسير القياسية نسبياً ودرجة من العشوائية فى اختيار الأشخاص الذين تتضمنهم الكتب . ولا نحتاج إلى جهد كبير لاثبات النقطة الأولى فنظرة عابرة فى كتاب بروكلمان (تاريخ الأدب العربي) تكفى لإقناع أى شخص بأن عدد التراجم الشخصية الموجودة قد تصل إلى مئات الألوف وربما الملايين . إلا أن النقطة الأخيرة أقل وضوحاً . ويمكن القول فى هذا الوقت بأنه بينما يكون اختيار التراجم ليس بعشوائي كما هى الحالة فى الطبقات الاجتماعية ، نجد الأمر كذلك بكل تأكيد فى الحالات الأخرى كما هى الحال فى الأسماء الأولى . إن كتب التراجم تختلف ـ طبعاً ـ بصورة كبيرة بالنسبة للطرق التى يظهر بها الاختيار العشوائي . إن هذه الصفات جميعاً

بالطبع تمثل مؤشرات لنوع من المعالجة الكمية أو الاحصائية وان المقال الحاضر موجه إلى استكشاف هذا الخط من البحث .

لم ينشر لحد الآن إلا القليل فى هذا المضمار ، إذ أن العلماء اعتادوا على استعمال كتب التراجم كما أراد لها مؤلفوها ، أي كمصادر أو مراجع ، والسبب فى ذلك لا تصعب معرفته . إذا بدا أن الشاذ النادر من التراجم فقط يحتوي على معلومات ذات قيمة تأريخية ، فمن الواضح كذلك أنه ليس بالإمكان أن نتعلم إلا النزر القليل عن طريق « دراسة كمية » لجميع التراجم غير الشاذة . وهكذا فإن المسألة هى كيف يمكن أن نستفيد فائدة ذات معنى من هذا الضرب من الكتابة ، والذي تَكمن فيه حقاً فائدة كبيرة ؟ فى المرحلة الحالية للبحث فى هذه الطريقة الكمية قد تكون الجهود معرضة لأن تُثقل بصورة كبيرة بافتراضات تجعلها طريقة تأملية إلى حد ما . من النادر ورود معلومات موثقة فى مجال التاريخ الاجتماعي أو الاقتصادي فى المصادر الإسلامية للقرون الوسطى مما يجعل من العسير اثبات النتائج التى يتوصل إليها بالوسائل الكمية ، وهكذا تبقى هذه النتائج غير نهائية إلى أن يتم تطور وسائل البحث تطوراً كاملاً . ومع ذلك فإني أرى أن

لابـد من الشروع بالاستفادة من أعظم مصدر للمعلومات عن الشرق الأوسط فى القرون الوسطى لم يطرق لحد الآن .

الفصـــل الأول

لقـد رُجـع إلى كتـابـين للتراجم في تهيئـة هذا البحث وهما: تاريـخ نيسـابور لمحمد بن عبد الله البيع النيسابوري المتوفى في ٤٠٥هـ والمعروف بالحاكم النيسابوري، والسياق لتاريخ نيسابور لعبد الغافر بن اسماعيل الفارسي المتوفي في ٥٢٩هـ. إن المخطـوطـات الموجودة لهذين المؤلفين نشرت تصـويـراً في كتـاب «تـاريخ نيسابور» الذي حرره د. ن. فراى. وهنـاك مخطـوطـة للمصـدر الأول التي لا تزيد على معجم للقاموس الأصلى المتعدد الأجزاء. حيث لا يرد في أغلب كتب الـتراجم الكثـيرة من المعلومـات عن صاحب الترجمة إلا اسمه.

أمـا المؤلف الثـاني فيوجد في مخطوطتين كل منهما تحتوي على تراجم لا تحتـويهـا المخطـوطة الأخرى. إلا أن الظاهر أن المخطوطتين تحتويان فيما بينهما جميع التراجم التي يحتويها الأصل باستثناء عدد قليل.

إن المؤلف الأخـير كتب كاستمـرار للمؤلف السـابق. وهكذا فإن مبدأين مهمين للطريقة الكمية لهما أهمية مباشرة في أيـة دراسـة لهذين المؤلفـين: الأول هو أن الهيكل العام لمخطوطة الحاكم النيسابوري تقدم لنا اختباراً محدداً واضح

المعالم للفكرة القائلة بامكانية استخلاص معلومات نافعة من مجرد قوائم الأسماء.

والثاني هو أن استعمال مؤلفين يعالجان نفس الموضوع ولكنهما يغطيان فترات زمنية مختلفة يختبر درجة امكانية مقارنة كتب مختلفة للتراجم. وهذا لا يعني بأن هناك أي مبرر يدفعنا للاعتقاد بأن كتب التراجم للعصور الوسطى يمكن اعتبارها قابلة للمقارنة من حيث المعالجة الكمية كمبدأ عام، وإنما يمكن القول بأن مختارات من كتب التراجم يمكن مقارنتها بشكل يؤدي إلى فائدة ولكن بشكل محدود.

قبل الانتقال إلى استكشاف الطريقة الكمية التي تمثل لب موضوعنا، يجب أن نقيم الأساس للمقارنة داخل هذين الكتابين وبينهما والذي تستند عليه طريقتنا، إن المبادىء التي تتضمنها هذه المؤلفات هى أن الفرد لابد انه عاش أوزار مدينة نيسابور فى إقليم خراسان في شمال شرقي إيران ولابد أنه كان يتمتع بشيء من الشهرة ضمن طبقته الدينية، أي تلك الفئة من السكان التي كانت تهتم بصورة خاصة بإدارة وحفظ ونشر وشرح الدين الإسلامي[٣]. ومن الواضح أن هذه الأسس تنطوي على الكثير من المعلومات بشأن الحالة الاجتماعية والاقتصادية العامة للفرد، ويمكن

عمل الكثير احصائياً للوصول إلى تحديد أكثر دقة لهذه الحالة أو هذا النمط من الحالات الاجتماعية. وكل ما علينا أن نفترضه الآن هو أن هؤلاء الناس بصورة عامة ينتمون إلى طبقة ثرية نسبياً وتتمتع بامتيازات خاصة(٤).

وبعد الخوض بصورة سطحية في الحدود الجغرافية والاجتماعية لكتب التراجم يبقى لدينا العمل الأكثر أهمية وهو تحديد نظام التسلسل التاريخي للأحداث. إن كلا الكتابين مرتبان حسب الحروف الأبجدية وذلك استناداً للاسم الأول للشخص ولكنها مرتبة كذلك حسب الطبقات ـ ففي مخطوطة الحاكم النيسابوري تظهر كل طبقة كوحدة مستقلة مرتبة أسماؤها حسب الحروف الأبجدية، أما في مخطوطة عبد الغافر الفارسي، من الناحية الثانية، فإن كل مجموعة من الأسماء المتشابهة قسمت إلى طبقات، وفي بعض الأحيان لا يبدو واضحاً إلى أية طبقة ينتمي فرد ما. إن مجموع الطبقات في كلا الكتابين هو أحد عشر طبقة، ثمان منها في الحاكم النيسابوري وثلاث في عبد الغافر الفارسي.

ومن سوء الطالع أن المبدأ الذي يمكن استعماله لتحديد التاريخ الأخير لكل طبقة لازال غير معروف. إن المبدأ النظري القائم على أساس الأجيال التي جاءت بعد محمد

(ﷺ) يمكن تطبيقه على الطبقتين الأوليتين من طبقات الحاكم النيسابوري ، وبعد ذلك فيبدو أن الطبقات تختلف اختلافاً كبيراً بالنسبة لمدة بقائها وتبدو أن لا علاقة لها بمسألة الأجيال(٥) . إن الطبقة الوحيدة التي تبدو لها علاقة بشيء محدَّد هى أقصر الطبقات وهي الطبقة الثامنة للحاكم النيسابوري ، فيبدو أن هذه الطبقة تتألف من معاصري وأصدقاء المؤلف ، ويبدو فيها الكثير من الأشياء الخاصة وذلك بسبب الطريقة غير الموضوعية التي جمعت على أساسها والتي تختلف بصورة واضحة عن الطريقة التي اتبعت في دراسة الطبقات الأخرى ، لذا يجب اهمالها في أكثر حالات العمل الاحصائي .

مع أن المبدأ الذي يتحكم في التقسيم حسب التسلسل التاريخي غير واضح فإنه مما لا شك فيه أن الأقسام تخضع لهذا المبدأ في الواقع ، فعن طريق جمع تواريخ الوفاة التي تزودنا بها التراجم الشخصية يمكن بسهولة أن نقرر بأن أول تاريخ للوفاة لكل طبقة هو نفس التاريخ أو تاريخ لاحق لآخر وفاة من الطبقة السابقة . وهذا يؤيد القول بأن الطبقات تتبع التسلسل التاريخي حسب تاريخ الوفاة(×)

(×) إذا صح ذلك فى تاريخ نيسابور للحاكم فلا يصح بالنسبة لبقية كتب الطبقات ، وإن سني الوفيات تتداخل بين الطبقة والطبقة الأسبق منها .

وهي تحدد كذلك على الأقل التاريخ التقريبي لنهاية كل طبقة.

يعطينا الجدول الآتي نتائج هذا القرار بالنسبة للطبقات الأحد عشر الواردة في الكتابين. كما ورد أنه يبين عدد التراجم في كل طبقة (بصورة تقريبية بالنسبة لطبقات عبد الغافر الفارسي وذلك بسبب الغموض الطارىء في مسألة إلحاق بعض الأفراد بطبقة ما)، كما يبين الجدول معدل عدد التراجم للسنة الواحدة وذلك بتقسيم الفترة الزمنية للطبقة على أعداد التراجم:

جـــــــدول رقـــم (١)

رقم الطبقة	التـــواريخ النهائيـــة	عـــدد السنوات	عـــدد التراجم	معدل التراجم للسنة الواحدة
١	حوالى ؟ - ٧٥هـ	؟	٢٧	؟
٢	حوالى ٧٥ - حوالى ١١٠	٣٥	٧٣	٢
٣	حوالى ١١٠ - حوالى ٢٠٠	٩٠	٨٨	١
٤	حوالى ٢٠٠ - حوالى ٢٧٠	٧٠	٦٣٢	٩
٥	حوالى ٢٧٠ - حوالى ٣١٤	٤٤	٥٢١	١٢
٦	حوالى ٣١٤ - ٣٣٥	٢١	٣١١	١٥
٧	٣٣٥ - ٣٣٨	٥٣	٩٤٨	١٨
٨	٣٨٨ - ٤٠٥	١٧	٩٨	٦
أ	٤٠٥ - ٤٢٥	٢٠	تقريباً ٢١٣	١١
ب	٤٢٥ - حوالى ٤٦٠	٣٥	تقريباً ٥٣٣	١٥
جـ	حوالى ٤٦٠ - ٥٢٥	٦٥	تقريباً ٩٥٣	١٥(*)

(*) الطبقات الثمانية الأولى من تاريخ نيسابور للحاكم النيسابوري .

أما الطبقات الثلاثة الأخيرة (أ ، ب ، جـ) فهي من السياق لتاريخ نيسابور لعبد الغافر الفارسي .

من المؤكد أن أكثر نقطة جلباً للنظر في هذا الجدول هي عمود معدل التراجم للسنة الواحدة. لو تجاهلنا الطبقات الثلاث الأولى والتي جاءت في تاريخ نيسابور المبكر الغامض وقبل تطور وتعقيد الوسائل العلمية للمسلمين ونظامهم التربوي، والطبقة الثامنة التي نوقشت آنفاً، نجد فترة ثلاثة قرون بقيت خلالها معدلات عدد التراجم ذات حجم متشابه. أما معدل التراجم لهذه الفترة بأجمعها فهو ١٣ للسنة الواحدة. وبكل تأكيد أن هذه النتيجة تبرهن على الانتظام الكبير في تجميع التراجم الشخصية. ويمكن القول كذلك بأن هذا الانتظام أكبر مما يبدو لأول وهلة، إذ أن التغيير في المعدلات إنما يتبع الخط البياني لزيادة أو انخفاض عدد سكان نيسابور والذي يمكن معرفته من مصادر مستقلة كالجغرافيين، وهذا يعني أن سكان المدينة وبالتالي حجم الطبقة الدينية كان أكبر خلال الفترة السامانية للطبقة السابعة حيث بلغ معدل التراجم للسنة الواحدة ثمان عشرة ترجمة، وهو أكبر من معدل التراجم لأية فترة سابقة، حيث كانت نيسابور في بداية بروزها كمدينة عظيمة تحت رعاية الطاهريين، أو فترة لاحقة حين عم البلاد الاضطراب عند تدفق الأتراك وقيام الامبراطورية السلجوقية. وهكذا نرى أن عدد

الـتراجم للسنة الواحدة لكل طبقة دينية متشابهة قد تكون أكثر انتظاماً مما يشير إليه الجدول.

وهكـذا نجـد في فترة أطـول بكثـير من حياة المؤلفين وفي كتـابـين منفصلين للتراجم نجـد دليـلاً على انتظـام مدهش، والسبب يكمن بالتأكيد في طبيعة النظام التربوي والعلمي الإسلامي. وبإيجاز فإن العالم يؤلف كتاباً يحتوي على ملاحظات لترجمة حياة كل من درس عنه أو سمع عنه شيئاً ذا أهمية دينية. وهذه المؤلفات التي تسمى المشيخات (مفـردهـا مشيخـة) قد أخـذت طريقهـا إلى المكتبـات المـرتبطـة عادة بالمؤسسـات الـدينيـة والـتربـويـة للمـدن الإسـلاميـة في العصـور الـوسطى، وبعـد ذلك حصل أن رجـالاً مثـل الحاكم النيسابوري وعبد الغافر الفارسي قرأوا هذه المشيخـات وقواميس أخرى للتراجم تسبقها واختاروا تراجـم من أرادوا أن يترجمـوا لهم حسـب الأسس الـتي وضعـوهـا لكتـابـاتهم. وبعـد مقـارنة مجموعة الملاحظات النـاتجـة يُزال المكرر منها ويؤلف كتاب التراجم. وبالتالى فإن من النـادر أن يقـوم مؤلف القـامـوس الأخـير بعمـل اختيـارات أوليـة، وإنـما كل قاموس للتراجم هو عبارة عن نتـائـج عدد كبـير من الجهـود الفـردية وهذا يعلل الانتظام الـذي لاحظنـاه أعـلاه والـذي يضمن عدم تأثـير أهـواء

المؤلف الاخير على محتويات مؤلفه بشكل كبير. وهذا يؤكد الفكرة القائلة بأن الموضوع الذي نعالجه إنما هو نموذج حقيقي عشوائي لطبقة رجال الدين[٦] يمكن الاعتماد عليه لفترة طويلة من الزمن.

وبعد إيضاح طبيعة وتركيب كتب التراجم موضوعة البحث بهذا الشكل يمكننا الآن أن نستمر في تبيان الطريقة الكمية.

الفصـــل الثاني

إن معظم الأسـماء في الشـرق الأوسـط في العصـور الـوسطى يتكـون من عدة أجـزاء، وأي شخص يمكن أن يعـرف بجـزء واحـد من اسمه، ولكن بصورة عامة تحتوي قواميس الـتراجم على جميـع الأسـماء التي كان يعـرف بها صاحب الـترجمة آنذاك. وباستثناء ذلك النوع من الأسماء الذي يملكه كل شخص في الواقع وهو الاسم والكنية فإن النوع الشائع للتسمية هو النسبة. والنسبة في الأساس اسم تضـاف إليـه الـلاحقـة (ي) والتي تحيله إلى صفـة لتبيـان علاقة (نسبة) ويمكن لهذا الاسم أن يدل على أي شيء، فيمكن أن يكـون اسم القبيلة، ككلب مثـلاً، فالشخص الذي يدعى «الكلبي» هو فرد من تلك العائلة أو من أبنائها أو من أتبـاعهـا أو له علاقـة ما بتلك القبيلة بشكـل من الأشكـال. ويمكن للنسبـة أن تكـون متعلقـة بمكان ما، فالبغـدادي رجـل له علاقـة ببغـداد بشكـل أو بآخـر، والنيسـابـوري رجـل له علاقـة بنيسـابور بشكل ما وهكذا دواليـك. ويمكن أن تشـير النسبـة إلى مهنـة الشخص أو نقص في جسمـه أو اتجـاه ديني معـين أو سلف مشهـور أو فضيلة معينة أو غير ذلك.

والنوع الذي يهمنا من النسب في هذا المكان هو ما يتعلق بمدينة معينة. والافتراض الذي يمكن أن نعمله الآن هو أن التكرار الغالب نسبياً للنسبة الجغرافية في فترات تاريخية مختلفة تعكس بصورة مباشرة حركة النقل على الطرق خلال تلك الفترات، وبصورة غير مباشرة مستوى حجم التجارة والرفاه، ترد للذهن اعتراضات كثيرة على هذه النظرية لأول وهلة ويمكن تقسيمها إلى نوعين: الأول هو الاعتراض على الافتراض القائل بأن اسم النسبة يعني بأن الشخص قد انتقل من المكان الذي تشير إليه النسبة إلى نيسابور، والاعتراض الآخر هو على الاستنتاج بأن حجم النسب بطريقة ما لها علاقة بحجم حركة السفر، دعك عن التجارة.

والاعتراض الرئيسي في المجموعة الأولى هو أن النسبة قد تكون اسم لعائلة يعكس علاقة مادية بالمدينة التي تشير إليها النسبة حصلت قبل أمد بعيد حين انتقل أحد الأجداد من مكان إلى آخر. إن هذا القول محتمل، بلا ريب. ولكن من دراسة حوالى ٢٠٠ مائتي شجرة للانساب استخلصت من التراجم المقدمة من قبل عبد الغافر الفارسي وجد أنه من النادر استعمال مثل هذا النوع من النسبة كأسماء للعائلة في نيسابور. إن كثيراً من النسب

تبدو كأسماء للعوائل بالفعل وذلك حين يحمل الاسم جميع أفراد العائلة ولعدة أجيال. ومعظم النسب من هذا القبيل تعود إلى أسماء قبائل عربية، أومهن، أوأجداد بارزين. أما النسب الجغرافية ماعدا تلك التي تتعلق بقرية محلية أو محلة (حارة) حيث تستمر العائلة على الاقامة، فإنها تميل إلى الزوال بعد جيلين. وحتى في حالة حمل أب وابنه لنفس النسبة فيحتمل جداً أن يكون الاثنان قد نشآ في المدينة التي تشير إليها النسبة وهاجرا أو سافرا إلى نيسابور سوية.

والاعتراض الآخر من هذا النوع هو الحالات النادرة التي يحمل فيها شخص واحد اسمين أوثلاثة أسماء للنسبة، وهكذا يكون مكان منشئه غامضاً. إلا أن حالات النسبة الجغرافية المضاعفة من السهل تفسيرها عادة، ففي الغالب يشير أحد أسماء النسبة إلى المدينة والآخر إلى قرية قربها أوإلى حارة في المدينة. ولكن في حالات أخرى يبدو من الواضح أن الشخص كان قد أقام حقاً في الأماكن العديدة التي تشير إليها أسماء النسبة وكان يكتسب نسبة جديدة كلما غير محل إقامته. وهكذا فحين نتكلم عن مجموعة النسب الجغرافية نجد ما يدل بقوة على أنه في حالة حمل رجل اسماً يشير إلى مكان معين فإنه من المحتمل جداً أن يكون قد أقام في ذلك المكان في فترة ما من حياته.

وهناك اعتراضان رئيسيان في المجموعة الثانية للاعتراضات. الأول هو أن ما يمثله عدد النسب الجغرافية في نيسابور في وقت ما لا يتعدى العدد النسبي للعلماء المسافرين طلباً للعلم، وليس له أية علاقة بالأشكال الأخرى لحركة النقل على الطرق. إلا أنه توجد دلائل عديدة تشير إلى خلاف ذلك. ففي المكان الأول كما أشار س. د. كويتين، وكما هو واضح من عدد كبير من التراجم في كتب التراجم موضوعة البحث، فإنه يندر سفر رجال بمفردهم، إذ أن الطرق العامة كانت غير مأمونة، والطريقة الاعتيادية كانت أن يصاحب الفرد قافلة عند انتقاله من مكان إلى آخر. والذي يقوي احتمال قيام الفرد بهذا الأمر هو كون كثير من العلماء إن لم نقل معظمهم كانوا يجمعون بين الدراسة والشغل فكانوا يسافرون كتجار للاشتغال في تجارتهم ويشغلون أنفسهم بطلب العلم خلال بقاءهم الذي قد تطول أو تقصر مدته في المدن المختلفة. وأخيراً فإنه من الواضح أن مدينة بحجم وأهمية نيسابور كانت مغناطيساً لجذب العلماء والتجار. والعوامل التي تؤثر على أسفار أحد النوعين من الناس كفقدان الأمن على الطريق والصراع السياسي تؤثر كذلك على النوع الآخر من المسافرين بنفس الطريقة.

إن هذه التعميمات لا تصدق بالطبع على جميع المدن وذلك لأن بعض المدن كمراكز الحج مثلاً لا تجتذب بالضرورة التجارة كما تفعل حاضرة نيسابور.

ومع ذلك يبقى لدينا السؤال: هل ان اسم الرجل، حتى في حالة اشارته في معظم الحالات إلى المكان الذي جاء منه حقيقة، هل يمكن اعتباره دليلاً على الطريق التي سلكها في سفره؟ وهذا السؤال أساسي في المناقشة الآتية. يمكن لشخص يلقب بالبغدادي مثلاً أن يسافر من بغداد إلى البصرة ثم يبحر إلى الهند ويصل نيسابور من الشرق في طريقه إلى بغداد. إن الطريقة التي اتبعت هنا في جمع النسب الجغرافية كمجاميع كما تقع على الطرق المختلفة المؤدية إلى نيسابور تعمل الكثير على حل هذه المسألة. بينما يمكن لرجل من أصفهان أن يأتي نيسابور عن طريق بغداد أو بالعكس ففي حالات نادرة فقط، كما جاء في الحالة السابقة عن الرجل الذي يبحر إلى الهند، يحتمل أن يصل رجل من إحدى المدينتين أم من مدينة أخرى تقع على الطريق العام لخراسان الشهير أو الطرق المؤدية له إلى نيسابور من جهة الشرق. كما أن المسالك الأخرى قد اختيرت حسب وضوح الطريق العام الذي يصل الأشخاص عبره إلى نيسابور. فالهدف من اختيار النسب

التي يجب استعمالها وتقرير كيفية تصنيفها هو التأكد من الاحتمال القائل بأن الأشخاص موضوعي البحث قد انتقلوا بالفعل في إحدى فترات حياتهم بطريق ما من المدينة التي تشير إليها أسماؤهم إلى نيسابور.

وأخيراً فهناك مسألة واحدة يجب ذكرها قبل الدخول في مناقشة نتائج هذه الطريقة. لقد ذكرنا آنفاً أن الحدود للتسلسل التاريخي للطبقات تقررها تواريخ الوفاة[٧]. وبما أن الشيء الذي نبحثه هنا هو هجرة الأشخاص فإن الفترات التاريخية التي يجب استخدامها يجب أن تكون تلك التي يقررها متوسط العمر في وقت الهجرة.

ولكن مما يؤسف له أن هذا العمر من الصعب جداً تحديده بدقة، فإن بعض الأشخاص هاجروا أطفالاً مع آبائهم، بينما لم يغادر الآخرون أوطانهم إلا في منتصف العمر. ولكن يمكن أن نخمن متوسط العمر فنقول ان متوسط العمر للهجرة هو ثلاثون سنة. والمسألة الآن هي كم عدد السنين التي يجب طرحها من الحدود التاريخية للطبقة التي تشير إليها تواريخ الوفاة لكي تحدد على وجه التقريب الحدود الزمنية للطبقة التي يحددها متوسط عمر الهجرة؟ والجواب على هذا السؤال يتوقف على متوسط حياة عالم القرون الوسطى، وهناك معلومات كافية في

كتاب عبد الغافر الفارسي يمكن بواسطتها تحديد ذلك. وبناءً على دراسة تراجم ١٥٠ رجل تعرف تواريخ ميلادهم ووفاتهم يمكن التأكيد بأن متوسط حياة الأفراد في كل من المؤَلَّفينَ هو ٧٨ سنة.

ولما كانت هذه السنوات قمرية وجب تحويلها إلى سنوات شمسية وهذا التحويل يجعلها ٧٥ سنة. وهذا الشيء متوقع من مجموعة رجال اجتازوا عهد الطفولة بسلام ولم يدخنوا أو يتعرضوا لتلوث الهواء أو الخدمة العسكرية أو التوتر العصبي الذي هو نتاج الحياة المعاصرة. وهكذا لكي نحدد الطبقات على أساس متوسط العمر للهجرة علينا طرح ٤٥ سنة من جميع التواريخ المعطاة في جدول رقم (١) وإذا أردنا تحديد الطبقات حسب تاريخ الولادة وجب طرح ٧٥ سنة. وهذا يؤدي إلى الأرقام الواردة في جدول رقم (٢).

إن هذه المناقشة الطويلة النفس نوعاً ما تزودنا بافتراضات كثيرة تكمن وراءها وتتصارع معها اعتراضات كثيرة لتجعل بالامكان عرض وشرح النتائج الحاصلة بصورة ميسورة ومباشرة نسبياً. إن الطريقة التي اتبعت كانت كالآتي:

استخلصت كل النسب الواردة في كتب التراجم هذه ورتبت حسب الطبقات (باستثناء الطبقات ١، ٢، ٣، ٨) وبعد ذلك تأكدنا من معنى كل نسبة وفصلت النسب الجغرافية عن بقية النسب، وبعدها حذفت جميع النسب التي تشير إلى نيسابور أو حارات داخلها. أما بقية النسب فقسمت إلى قسمين، قسم يشير إلى أماكن تقع ضمن منطقة نصف قطرها ١٠٠ ميل مركزها نيسابور، وقسم يشير إلى أماكن أبعد من ذلك.

جـــــــدول رقـــم (٢)

تاريخ نيســـابور للحاكم النيسابوري

الطبقة	التـواريخ النهائيـة حســـب الوفـاة	التـواريخ النهائيـة حســـب الهجـرة	التـواريخ النهائيـة حســـب الميـلاد
١	حوالى ؟ ـ ٧٥ هـ	حوالى ؟ ـ ٣٠ هـ	؟ ـ صـفر هـ
٢	حوالى ٧٥ ـ حوالى ١١٠	حوالى ٣٠ ـ حوالى ٦٥	حوالى صفر ـ حوالى ٣٥
٣	حوالى ١١٠ ـ حوالى ٢٠٠	حوالى ٦٥ ـ حوالى ١٥٥	حوالى ٣٥ ـ ١٢٥
٤	حوالى ٢٠٠ ـ ٢٧٠	حوالى ١٥٥ ـ حوالى ٢٢٥	حوالى ١٢٥ ـ حوالى ١٩٥
٥	حوالى ٢٧٠ ـ حوالى ٣١٤	حوالى ٢٢٥ ـ حوالى ٢٦٩	حوالى ١٩٥ ـ ٢٣٩
٦	حوالى ٣١٤ ـ ٣٣٥	حوالى ٢٦٩ ـ ٢٩٠	حوالى ٢٣٩ ـ ٢٦٠
٧	٣٣٥ ـ ٣٨٨	٢٩٠ ـ ٣٤٣	٢٦٠ ـ ٣١٣
٨	٣٨٨ ـ ٤٠٥	٣٤٣ ـ ٣٦٠	٣١٣ ـ ٣٣٠

السـياق لتاريخ نيسـابور لعبد الغافر الفارسي

الطبقة	التواريخ النهائية حسب الوفاة	التواريخ النهائية حسب الهجرة	التواريخ النهائية حسب الميلاد
أ	٤٠٥ ـ ٤٢٥	٣٦٠ ـ ٣٨٠	٣٣٠ ـ ٣٥٠
ب	حوالى ٤٢٥ ـ ٤٦٠	حوالى ٣٨٠ ـ ٤١٥	حوالى ٣٥٠ ـ ٣٨٥
جـ	حوالى ٤٦٠ ـ ٥٢٥	حوالى ٤١٥ ـ ٤٨٠	حوالى ٣٨٥ ـ ٤٥٠

سميت المجموعة الأولى «النقل المحلى» والمجموعة الثانية «النقل لمسافات طويلة» وبعدها صنفت النسب التي تشير إلى المسافات البعيدة حسب أربع طرق عامة تؤدي إلى نيسابور :

١ ــ طريق شمال شرقي يؤدي إلى نيسابور من الصين عن طريق سمرقند، بخارى، مرو، سرخس.

٢ ــ طريق جنوب شرقي يؤدي إلى الأراضي المنخفضة شمال وجنوب جبال هندكوش وتغطي مدن همذان ومروالروذ وبلخ.

٣ ــ طريق خراسان القادم من بغداد عبر همذان فالري فدمغان فنيسابور والطرق الفرعية الآتية من كازفن، أصفهان والبصرة.

٤ ــ الطريق الواقعة على طول الأراضي المنخفضة لبحر قزوين والمؤدية إلى نيسابور عبر سهل جرجان. يجب أن نلاحظ بأنه بالرغم من أن طريق رقم ١، ٤ وكذلك ٢، ٣ يوازي بعضها البعض إلا أنها منفصلة عن بعضها البعض بسلاسل جبلية هامة وهي في الواقع طرق متميزة ومنفصلة عن بعضها البعض.

ولكي نبين الحصة النسبية لحركة النقل الداخلة إلى

نيسابور من كل واحدة من هذه المسالك في كل فترة زمنية وضع شكل بياني يبين النسبة المئوية لأسماء النسبة المتجمعة للمدن الواقعة على كل من هذه المسالك بالنسبة للعدد الكلي لأسماء النسبة من المسالك الأربعة كلها. ويبدو هذا في الشكل البياني رقم (١). إن هذا الشكل يشير فقط إلى النسبة لحركة النقل على المسالك الأربعة ولذلك من الصعب تفسيرها بمفردها لأن الحجم الكلي للنقل خلال كل فترة يبقى مجهولاً. فإن نسبة مقدارها ٢٠٪ من النقل خلال فترة ما قد تعادل ما يساوي أو يزيد على ٦٠٪ من حصة النقل الحقيقي خلال فترة أخرى إن كان هناك تغيير ملموس في حجم النقل الكلي.

أما الشكل البياني الثاني فيعطي فكرة عن التغيير في المجموع الكلي للنقل، ويبدو فيه العدد الكلي لأسماء النسبة من المسالك الأربعة كنسبة مئوية من العدد الكلي لأسماء النسبة لكل الأنواع في كل طبقة. (اسم النسبة الوحيد الذي أخرج من الحساب هو «النيسابوري» وذلك لأن الشخص القاطن في نيسابور لن يميزه اسمه النيسابوري عن أي شخص آخر من المواطنين. وإعطاء اسم النسبة هذا من قبل مؤلفي كتب التراجم كان يشير إلى الاقامة وليس لأنه جزء حقيقي من اسم الشخص.

وهذا واضح من حقيقة كون عدد قليل من الناس فقط من مؤلف الحاكم النيسابوري لا يحملون اسم نسبة وقسم كبير منهم يحمل اسم نيسابوري، بينما نجد في مؤلف عبد الغافر الفارسي عدداً كبيراً من الناس نوعاً ما بدون اسم نسبة وقسم قليل جداً يحمل اسم النسبة «النيسابوري». من الواضح أن أسلوب المؤلف متقلب وان ظهور اسم النسبة هذا يجب اهماله في عملنا الكلي).

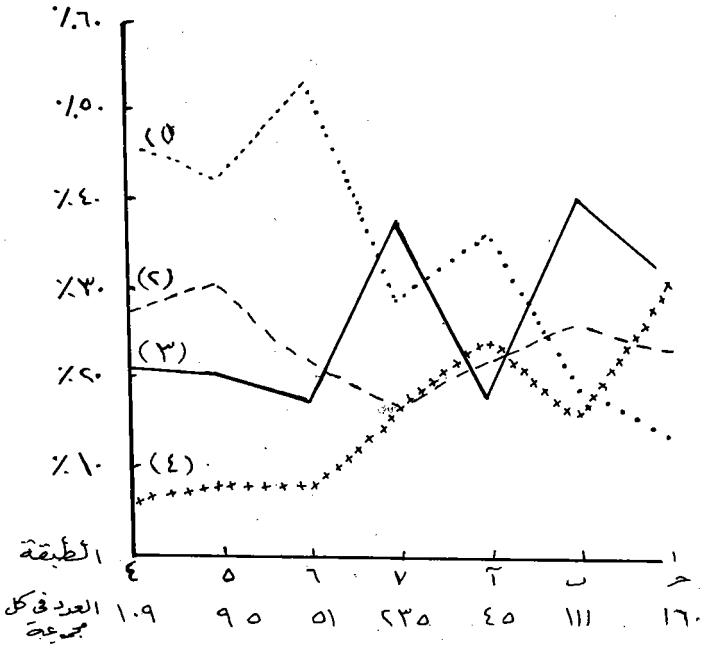

الشكل البياني رقم (١)

(١) الخط المنقط ــ الطريق الشمال الشرقي من سمرقند، بخارى، مرو.

(٢) الخط المنقطع ــ الطريق الجنوبي الشرقي من بلخ وهرات.

(٣) الخط المتصل ــ طريق خراسان العام من بغداد ـ أصفهان والري.

(٤) الخط المتصالب ــ طريق منطقة قزوين من استراباد وجرجان.

المقياس الزمني (الهجري) :

الطبقة :	٤	٥	٦	٧
التاريخ :	حوالى ١٥٥ ـ حوالى ٢٥٥	حوالى ٢٥٠ ـ حوالى ٢٦٩	حوالى ٢٦٩ ـ ٢٩٠	٢٩٠ ـ ٣٤٣
	أ	ب	جـ	
	٣٦٠ ـ ٣٨٠	٣٨٠ ـ حوالى ٤١٥	حوالى ٤١٥ ـ ٤٨٠	

مما لا يمكن نكرانه أن هذه الطريقة طريقة مغامرة. فبما أن أعمدة الشكل البياني لا تجمع ١٠٠٪ فإن التقلبات في الخط قد تكون ناتجة عن تقلبات أخرى حصلت بين أسماء النسبة غير الجغرافية الباقية. وذلك يعني أن حالات النسبة الجغرافية للمسافات البعيدة قد يكون عددها كبيراً بشكل خاص ليس بسبب نموحركة النقل إلى نيسابور خلال فترة زمنية معينة وإنما بسبب انخفاض ملحوظ في عدد الناس الذين يحملون أسماء نسبة ترجع إلى قبائل

عربيـة، وقـد تكـون ناتجـة عن تغيـير عنصـري في تركيب الطبقـة الدينية[٨]. إلا أن الأمر قد لايكون كذلك. فالأمر لا يتعلق بعدد مطلق من النسب فالأفراد قد لا يحملون أي اسم للنسبة أو يحملون عدداً من أسماء النسبة. وهكذا فإن النقص في عدد أسماء النسبة في صنف لا يستدعى ارتفاعاً يقابل ذلك في عدد النسب في صنف آخر لكي يحافظ على المجموع الكلي على حاله.

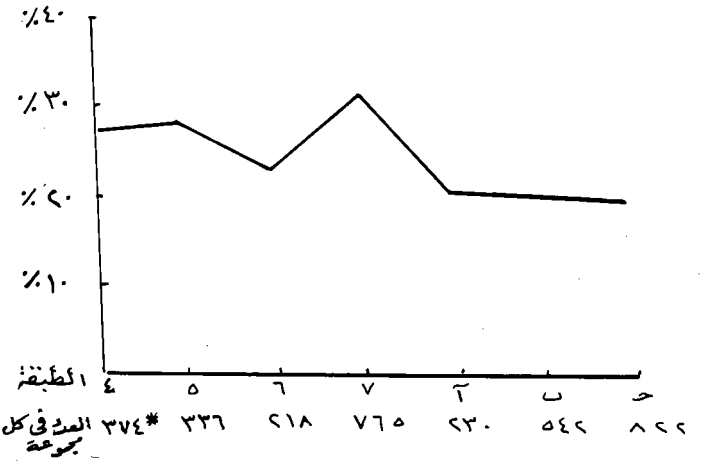

الشـكل البيـاني رقـم (٢)

يمثل الخط المتصل النسب المستقاة من النقل للمسافات البعيدة كنسبة مئوية من العدد الكلي للنسب (باستثناء نيسابور) في كل طبقة.

* إن هذا ليس بالعدد الكلي للنسب في طبقة ٤ ولكن عند الأشخاص الذين يحملون أية نسبة كانت (ماعدا نيسابوري)، أما أسماء النسبة المضاعفة التي يحملها شخص واحد فسيجعل عدد النسب الكلي أكبر بقليل بلا ريب مما سيقلل من النسبة المئوية إلى حد ما).

ولما كان الأمر كذلك فالشيء الوحيد الذي يمكن عمله هو أن نقارن الخط البياني الذي يحمل النقل للمسافات البعيدة في الشكل (٢) مع الخطوط البيانية لمجموعات أسماء النسبة الأخرى التي يمكن تشخيصها. يمثل الخط (أ) في الشكل (٣) نسبة ورود ٣٠ اسم نسبة في كل طبقة أخذت من ضمن النقل المحلي ضمن دائرة نصف قطرها ١٠٠ ميل، مشيراً إلى النسبة المئوية من العدد الكلي للنسب في الطبقة. إن الخط البياني مستوٍ نوعا ما وأقصى اختلاف له يصل إلى ٦ درجات بالمئة. أما الخط (ب) فيشير إلى النسب المئوية لأسماء النسبة المأخوذة من القبائل العربية ومن أسماء أجداد مشاهير. وهذا الخط مستوٍ نوعاً ما، ولولا الطبقة الخامسة التي تغطي الفترة

المبكرة عندما كان عدد العرب في الطبقة الدينية عالياً نسبياً لكان أقصى حد للاختلاف ٣ درجات بالمائة.

إن الاختلاف بين هذين الخطين والخط الذي يمثل النقل على المسافات البعيدة (أي خط حـ في الشكل ٣) اختلاف كبير. إن كون أقصى اختلاف هو ١٢ درجة بالمائة والقمة الواضحة في الطبقة السابعة يجعل من الصعب تجنب الاستنتاج بأن هناك شيئاً خاصاً يفصل الفترة الزمنية للطبقة السابعة عن الفترات قبلها وبعدها. بالإضافة إلى ذلك فإن الاستواء النسبي للخط المبين للنقل المحلي بالمقارنة بالخط البياني لحركة النقل البعيد تؤيد صحة الفرضية التي تكمن وراء التحقيق بأكمله، أي أن تردد النسب للمسافات البعيدة يعكس تغيرات هامة في مستوى التجارة. بغض النظر عن الأوضاع الاقتصادية والسياسية فإن النقل المحلي يحتمل أن يبقى ثابتاً نوعاً ما، وذلك لأن المؤن الغذائية لابد أن تجلب إلى المدينة والمدينة لها دائماً سحر الجاذبية على المناطق التي تزودها بالمؤن خاصة في مسائل الدين والتربية. ومن ناحية أخرى فإن الأوضاع الاقتصادية والسياسية يمكن لها أن تؤثر تأثراً شديداً على النقل للمسافات البعيدة طالما أن المنتجات الكمالية التي يختص بها النقل للمسافات البعيدة ليست

ضرورية وطالما كانت هناك مدن أخرى يمكن أن تكون مراكز لجذب العلماء إليها.

وهكذا تقوم المناقشة معتمدة على عدد من الافتراضات التي يمكن أن تقام الحجة ضدها أو معها. ومن الوجهة المثالية يجب أن تقدم احصاءات متوازية من مصادر احصائية مستقلة لكي تؤيد صحة الافتراضات أو تدحضها. إلا أن مثل هذه الاحصاءات غير متوفرة، للأسف. ولكن هناك طريقتان أخريتان للاختبار، واحدة متوافرة حالياً ونأمل أن تتوافر الأخرى في المستقبل. والطريقة الأخيرة ستأخذ شكل احصاءات مقارنة لمدن أخرى تستخلص من كتب أخرى للتراجم، فالطريقة التي تدعي تقديم نتائج ذات معنى في حالة ما لابد أن تعمل كذلك في حالات أخرى. أما الطريقة الأولى فهى طريقة المؤرخ القياسية: ما مدى اتفاق هذه النظرية مع الحقائق التاريخية المعروفة؟ وبكلمة أخرى كيف يجب أن تفسر الخطوط البيانية؟

إن من نافلة القول أن نذكر بأن التفسير لا يمكن أن يكون واضحا وحاسماً أبداً. إلا أنه في المسألة الحاضرة يبدو أن التوافق بين المظاهر الرئيسية للخطوط البيانية الممثلة للطرق العامة في الشكل (١) والخط البياني للمسافات

الطـويلة في الشكـل (٢) وبـين الحوادث التاريخية مسألة لا تحتمل الجدل.

الطبقة الرابعة (حوالى ١٥٥ ـ ٢٢٥) :

من المميـزات البـارزة لهذه الفترة هو مستوى عال من حركة النقل الاجمالية للمسافات البعيدة وخاصة الرحلات الآتيـة من الشـمال الشـرقي عن طريق رقم (١) حيث تمثل أعلى نسبـة، تليها ضخامة الرحلات التي اتخذت الطريق الجنـوبي الشـرقي رقم (٢). تمثـل تلك الفـترة عظمـة العبـاسيـين. وتبـدأ من حكم المنصور وتمتد إلى بداية فترة سامـراء. لقـد كانت بلخ عاصمـة لخراسان، أما العاصمة السـابقـة قبل سنة ١١٨ فقد كانت مرو والتي كانت لا تزال المدينة الكبرى في آسيا الوسطى العربية آنذاك. أما بغداد فكـانت عاصمة الامبراطورية الإسلامية بلا منازع وكانت نيسـابـور حتى وقت متأخـر من الفـترة التى اتخـذها طاهر عاصمـة له مدينـة صغـيرة على الطـريق المؤديـة إلى ترانسسكسـونيـا والمنـاطق التي فيهـا. وهكذا يصبح سبب تعـاظم مقـدار النقـل وتـركز اتجاهه من الشرق إلى الغرب مفهـومـاً وواضحـاً. لقـد كان نقـلاً للترانسييت يعـبر عن مقـدار تدفق الرجال والبضائع من آسيا الوسطى وخراسان إلى العاصمة بغداد.

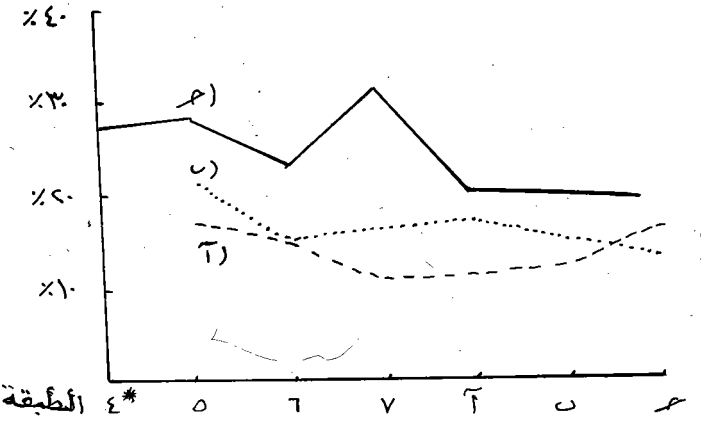

الشكل البياني رقم (٣) العدد في كل مجموعة هو نفس العدد في الشكل رقم (٢)

(أ) الخط المتقطع ــ النسب المستقاة في الأماكن الواقعة ضمن دائرة نصف قطرها ١٠٠ ميل حول نيسابور.

(ب) الخط المنقط ــ النسب المستقاة من أسماء القبائل العربية ومن أسماء أسلاف مشهورين .

(حـ) الخط المتصل ــ كما هو في الشكل (٢) .

(٢) إن المعلومات عن النسب المأخوذة من القبائل العربية والأسلاف المشاهير. والنقل المحلي لم تجمع فيما يخص طبقة رقم (٤) .

إن الرجال الذين كانوا يتوقفون لفترات طويلة أو قصيرة في نيسابور كانوا شرقيين في طريقهم إلى أو من عاصمة العباسيين، وبصورة خاصة، كانوا رجالاً من مرو وبلخ اللتين استأثرتا بنسبة ٤٢٪ من مجموع النقل للمسافات الطويلة مجتمعين (يشير نموذج صغير جداً إلى أنه خلال الفترة السابقة وللطبقة الثالثة المحصورة بين حوالى ٦٥ إلى حوالى ١٥٥ وهى الفترة التي أصبحت فيها بلخ عاصمة خراسان، كانت النسبة المشتركة لهاتين المدينتين نفس النسبة بالضبط أي ٤٢٪).

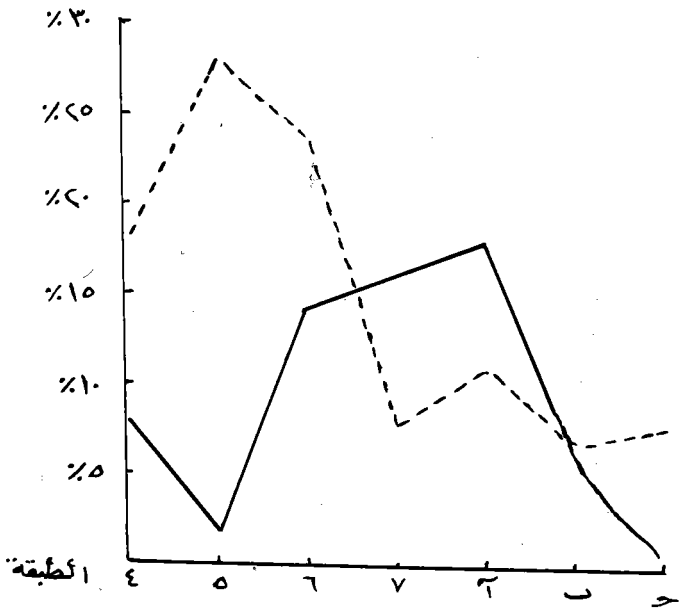

الشكل البياني رقم (٤) العدد في كل طبقة كما ورد في الشكل رقم (١)

النسبة المئوية لإجمالى النقل على المسالك الأربعة البعيدة المسافات المنطلقة من :

الخط المتصل ــ بخارى .

الخط المتقطع ــ مرو .

الطبقة الخامسة (من حوالى ٢٢٥ إلى حوالى ٢٦٩) :

كانت خراسان في وضع يختلف تماماً في هذه الفترة . إن ظهور الطاهريين عند بداية القرن الثالث تمثل بداية فترة طويلة من الانبعاث السياسي الفارسي الذي شهد استقلالاً متزايداً لايران الشرقية وترانسكسونيا عن بغداد سياسياً وثقافياً . لقد اتخذ الطاهريون نيسابور عاصمة لهم وبدأوا يعملون على جعلها مدينة عظيمة . إلا انهم طردوا من عاصمتهم عام ٢٦١هـ على أيدى الصفارين وهم سلالة فارسية حاكمة أخرى جاءت من إيران الجنوبية . إلا أن هذا التغيير في الحكومة لم يكن ليؤثر على المدينة كثيراً ، وفي الوقت ذاته ظهرت سلالة فارسية حاكمة ثالثة ؛ سلالة

السامانيين في بخارى في ترانسكسونيا. وكانت الحكومة المركزية للعباسيين تعاني أياماً سوداً من القتال الامبراطوري[٩] الداخلي في سامراء وأياماً أكثر سواداً بعد عودتهم إلى بغداد وهم يقاومون ثورة الزنج. إن هذه الأحداث لا تبدو واضحة في الأشكال البيانية. إن نيسابور الناشئة كانت لاتزال مدينة الترانسيت بصورة رئيسية لذا فإن اتجاه السفر الغالب كان مازال من الشرق إلى الغرب ومازالت مرو وبلخ تستأثران بـ ٤٠٪ منه.

الطبقة السادسة (حوالى ٢٦٩ ــ ٢٩٠) :

حادثة واحدة ترمز إلى التغييرات التي حصلت خلال هذه الفترة. ففي سنة ٢٨٧ تغلب الحاكم السامانى إسماعيل بن أحمد على عمرو بن الليث الصفاري، وهكذا أصبح أميراً لخراسان متخذاً بخارى عاصمة له، واستقبلت نيسابور حاكماً سامانياً لها. إن نتائج ظهور السامانيين والتغيرات التي حصلت في تركيب السلطة يبدوان بوضوح في الأشكال البيانية، فهناك ازدياد ملحوظ في النقل عن الطريق الشمالي الشرقي الذي كان واسعاً في السابق بسبب أهمية مرو وأصبح أكثر اتساعاً بسبب الأهمية الجديدة لبخارى، التي أصبحت نيسابور بالنسبة لها آنذاك

تابعاً. إن الشكل (٤) الذي يصور النسبة المئوية لنسب المسافات البعيدة الخاصة بمرو وبخارى يبين كيف يمكن أن نرى بجلاء الظواهر المتدرجة لتدهور مرو كمدينة كبرى في خراسان من جهة وبروز بخارى من جهة أخرى باتباع هذه الطريقة. وكانت بلخ تتدهور لحساب بخارى كذلك.

إن النسبة المئوية للنقل من بخارى وبلخ خلال هذه الفترة مجتمعتين هو ٣٣٪. وبالإضافة لهذا فإن الخط الجديد يعكس تدهوراً ملحوظاً في مقدار النقل بصورة عامة. كان الشرق آنذاك كياناً مستقلاً عن الامبراطورية العباسية التي كان مركزها بغداد. لم تعد بغداد مركز الجذب الوحيد، فإن تجارة الترانسيت عبر نيسابور قد أخذت بالانخفاض كلما ازدادت خراسان اتجاهاً إلى الشرق نحو بخارى.

الطبقة السابعة (٢٩٠ ــ ٣٤٣) :

إن التطورات السياسية الكبرى التي حصلت في هذه الفترة كانت قليلة، ولكن الأشكال البيانية تبين بأن آثار التطورات السابقة قد تحققت بصورة تامة في هذا الوقت، لقد استمرت الخلافة في بغداد تتدهور بينما أخذت الدولة السامانية بالازدهار.

وازدهـرت نيسابور كذلك تحت رعاية السمجوريين، وهم سلالـة من الحكـام عينهم الحـاكم السامانى والتي تمتد جذورهـا في منطقة نيسابور. استنتاجاً من التقدم المطرد في مقـدار النقل للمسافات الطويلة لابد أن تكون تلك الأيام من أكثـر الأيـام رفاهية في تاريخ نيسابور. كما شهدت هذه الفـترة أيضـاً التطـورات الأولى في مدرسة الفقه الأشعرية والتي كتب لها أخيراً أن تخرج أعظم مفكري نيسابور أمثال إمـام الحـرمين الجويني، أبي القاسم القرشي والغزالي. إن أعظم مناصري هذا المذهب من أبناء نيسابور وهو أبو سهل الصعلوكي توفى عام ٣٦٩. إن تحليـل هذه الفترة المزدهرة عن طريق المسالك العامة شيء ينور الفكر. إن نسبة النقل عن طريق الشـمال الشـرقي قلت، ولكن كما يشـير إليـه الشكـل البيـاني رقم ٤ فإن الانخفـاض كان راجعاً بصورة رئيسية إلى التدهور الجديد لمرو كمدينة عظمى. إن حصة بخارى من النقل ارتفعت ارتفاعاً كبيراً، بينما تقلص النقل عن الطـريق الجنـوبي الشـرقي. لقـد أصبحت الحصـة المشتركة للنقل من مرو وبلخ آنذاك ١٣٪ فقط مقابل ١٦٪ حصـة بخـارى لوحدها بسبب تدهور بلخ لمصلحة بخارى ونيسـابـور المـزدهـرتين. إلا أن الأمر الذي يثير الاهتمام هو انعكاس ميزان النقل بين الشرق والغرب، فلأول مرة نجد نسبة النقل الآتية من الغرب أكبر من نسبة النقل الآتية من

الشـــرق (٥٤٪ مقـــابـل ٤٦٪). إن نيسـابـور وبخـارى كمـركـزين لانبعـاث سيـاسي وثقـافي فارسي قوي ظهـرتا كمـركـزي جذي توازي قوتهما الجاذبية من كل الوجوه تلك التي كانت تتمتع بها بغداد. لقد ازداد النقل من منطقة بحر قزوين، ولكن يقلل من أهميـة هذه الـزيـادة تلك الـزيـادة العظيمـة في حركـة النقـل المتـدفقة نحو الشرق على طول الطـريق العـام لخراسـان. بالإضـافـة إلى ذلـك لا يمكن اعتبار مدينة واحدة سبباً لهذه الزيادة، إذ أنه كما يشير شكل رقم (٥) فإن الـري وبغداد وأصفهان يظهرن قمماً متشابهة في طبقة رقم ٧ حيث تصور النسبة المئوية لعدد النسب من تلك المـدن بالنسبـة للمجمـوع الكـلي للنقـل البعيـد. وبـاختصـار فإن أوج عظمـة الحكم السـامـاني يبدو كفترة ازدهـار عظيم في الشـرق، ازدهرت خلالها نيسابور ازدهاراً كبيراً ووضعت الأسس لازدهار ثقافي في المستقبل.

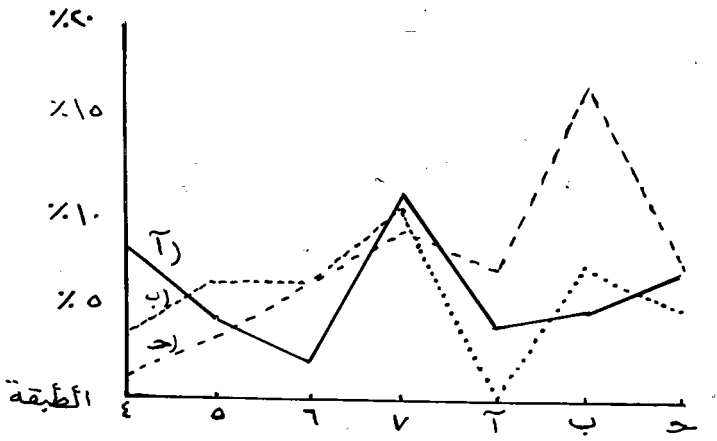

الشكل البياني رقم (٥) العدد في كل طبقة كما ورد في شكل (١)

النسبة المئوية للنقل الإجمالي للمسافات الطويلة على المسالك الأربعة المنطلقة من :

(أ) بغداد .

(ب) الري .

(حـ) أصفهان .

الطبقة أ (٣٦٠ ــ ٣٨٠) :

لو نظرنا إلى الأشكال البيانية بعد فجوة أمدها عشرون سنة سببها حذف الطبقة الثامنة الشاذة لبدا الأمر كما لو أن شريطاً سينمائياً قد حذف منه مقطع ، إذ نجد أن مستوى النقل البعيد قد انخفض فجأة إلى درجة واطئة جديدة ، احتفظ بها حتى نهاية الفترة الزمنية التي تعطيها كتب التراجم ، فإن ميزان النقل بين الشرق والغرب قد تغير ثانية وأصبحت نسبة النقل من الغرب ٤٢٪ فقط ، وإن مستوى النقل على طريق خراسان العام قد هبط من قمته العالية مشاركاً بذلك التدهور الذي أصاب المدن العظمى الثلاث الواردة في الشكل رقم (٥) . ويبدو أن منطقة قزوين فقط لم تتأثر. ماذا حصل لازدهار السامانيين العظيم؟ هل حقاً تعكس الأشكال البيانية تغيرات اقتصادية وسياسية مهمة؟

في الواقع أن المنحنيات في الشكل البياني توحى بمعلومات معينة يؤيدها بصورة تامة فحص للأحداث التاريخية. إن هذه الأحداث تتعلق بثلاث سلالات حاكمة . .

أولا : إن سلالة البويهيون في غرب إيران والعراق قد وصلت ذروة ازدهارها وقوتها تحت حكم عضد الدولة الذي

تمتع بأكبر مقدار من السلطة من أوائل الستينات للقرن الرابع حتى وفاته سنة ٣٧٢.

ثانياً : بدأت سلالة السامانيين خلال هذه الفترة تغوص في مستنقع من المؤامرات البلاطية والسيطرة التركية الامبراطورية. بالإضافة إلى ذلك كانت هناك عداوة بين البويهيين والسامانيين بسبب الخلافات الدينية والتي تعتبر هي وقوة الجذب للبلاط البويهي سبباً للانحطاط الملحوظ في مقدار النقل على طريق خراسان العام. إن هذا الهبوط في مقدار النقل على هذا الطريق العام العظيم بالإضافة إلى الفوضى في قلب الدولة السامانية يشاركان بكل تأكيد في الانحطاط العام في الرفاهية التي يشير إليه الانخفاض في المقدار الكلي للمسافات البعيدة.

ثالثاً : إن منطقة قزوين كانت خلال هذه الفترة متماسكة نوعا ما تحت حكم سلالة بني زيار الذين اقتصر سلطانهم على هذه المنطقة. إن هذه السلالة الصغيرة لم تكن آمنة في سلطتها أبداً، إلا أن اتخاذ جرجان عاصمة لها وكون بني زيار حلفاء للسامانيين ضد البويهيين يعلل بسهولة سبب ازدياد مقدار النقل على هذه الطرق. وهكذا، فالبرغم من المشاركة الأكيدة لنيسابور في التدهور الاقتصادي للدولة السامانية فإن السياسات المستبدة هي

التي تفسر لنا نموذج النقل في هذه الفترة أكثر من أن يكون هناك شيء خاص يتعلق بالمدينة ذاتها.

الطبقة ب (حوالي ٣٨٠ ــ ٤١٥) :

كانت هذه الفترة فترة محمود الغزنوي الشهير. أصبح حاكماً لنيسابور عام ٣٨٤، ثم أصبح رئيساً للسلالة الغزنوية بعد فترة قصيرة من وفاة أبيه سبكتكين عام ٣٨٧ وحكم حتى وفاته عام ٤٢١. تحقق نمو ثقافي عظيم في نيسابور خلال هذه الفترة. فقد ازدهرت المدينة فكرياً وإن لم تكن قد ازدهرت اقتصادياً بعد. فقد كان مذهب الأشعرية في ازدهار بزعامة أبي الطيب الصعلوكي (المتوفي في ٣٩٨)، وابن فورك (المتوفي في ٤٠٦)، والحاكم النيسابوري (المتوفي في ٤٠٥)، وأبي اسحق الاسفراييي (المتوفي في ٤١٨). لقد ازدهر المذهب الحنفي ـ المعتزلي برعاية الغزنويين، وأسس أخو محمود المدرسة الصناعية في نيسابور لهذا المذهب، وربما كانت هذه المدرسة نموذجاً أنشأت المدرسة النظامية الأخيرة على غراره. إن هاتين الظاهرتين تعللان الموافقات الظاهرة في الأشكال البيانية لهذه الفترة.

إن الظاهرة الأكثر أهمية هى بالتأكيد القمة العالية في مستوى النقل القادم من نيسابور على طريق خراسان

العام. إن الخط المنحدر في الشكل (٥) الذي يعود فيرتفع مشيراً إلى زيادة النقل من أصفهان والري معاً دليل على أن الزيادة في النقل كانت عامة على المسالك العامة، بينما يعكس الانحدار المستمر في خط بغداد الفوضى التي أثرت على المدينة بصورة مستمرة خلال فترة حكم البويهيين الأخيرة. إن هذه الزيادة قد تعود جزئياً إلى تولي سلالة جديدة قوية للحكم، ولكن هذا غير محتمل كما سنرى أخيراً. إن الزيادة لابد أن تعود إلى انتعاش نيسابور وظهورها كمركز فكري له قوة جذب كغيره من المراكز.

أما بالنسبة للطرق العامة الأخرى فإن انخفاض حصة منطقة قزوين من النقل قد تعكس تدهور سلالة بني زيار واتباع سياسات غير حكيمة من قبل قابوس بن واشمكير بعد عودته إلى جرجان عام ٣٨٨هـ. إن الانخفاض العظيم في حصة النقل القادم من الشمال الشرقي قابل للتفسير بشكل أكبر. إن ضعف السامانيين وبالتالى سقوطهم أزال السد الذي كان يصدُّ القبائل التركية في آسيا الوسطى. أما ترانسسكسونيا التي لم يتمتع الغزنويون فيها بسلطة كبيرة فقد عادت إلى الحياة الرعوية. يوضح الشكل (٤) ما حدث بالضبط للنقل من مرو وبخارى.

وأخيراً فإن الارتفاع الملحوظ في حصة النقل من الجنوب الشرقي، وهو الاتجاه المؤدي إلى العاصمة الغزنوية يعود إلى مجيء السلالة الحاكمة الجديدة. إن مدينة هيرات التي تعتبر أهم مدينة بين نيسابور وغزنة ظهرت كمصدر رئيسي للنقل إلى نيسابور حيث حظيت ١٨٪ من المجموع الكلي للنقل.

إلا أن السؤال الذي يرد إلى الذهن هو: لماذا لم تؤد مثل هذه السلالة الجديدة القوية إلى زيادة في حجم النقل الكلي الذي افترض هنا انه يعكس المستوى العام للتجارة والرفاه؟ والجواب على هذا هو البعد؛ فقد كانت غزنة مقر الدولة تفصلها عن نيسابور مسافة ٨٥٠ ميل من الأراضي الصحراوية، بينما تقع على مسافة ٤٧٥ ميل فقط في الجهة المقابلة مدينة لاهور وثروات الهند التي لا تقهر وهكذا فليس من المدهش أن نرى محمود يختار الاتجاه نحو الشرق ويقوم بالحملة تلو الحملة داخل الهند. وتحت هذه الظروف أصبحت نيسابور مجرد نقطة على الحدود الغربية بعيدة جداً عن قوافل التجارة وقوافل الغنائم من الهند إلى غزنة.

ونجد في هذه العزلة بعد فترة قصيرة من الزمن تفسيراً لاستسلام نيسابور للأتراك السلاجقة بكل سهولة.

الطبقة جـ (حوالي ٤١٥ ــ ٤٨٠) :

في سنة ٤٢٨ احتل الأتراك السلاجقة نيسابور لأول مرة. وبعد طردهم لفترة قصيرة جاءوا ثانية في سنة ٤٣١ ليبقوا. إن فترة عظمة السلاجقة محدودة بحكم السلاطين الثلاثة الأوائل : طغرل بك، الب ارسلان وملك شاه. توفى آخر الثلاثة عام ٤٨٥ والذي يجعل الفترة التي نحن بصددها توافق فترة عظمة السلاجقة. إلا أن تأثير هذا التغيير في الحكم على اقتصاد نيسابور لم يكن ليرحب به. إن الطريق الشمالي الشرقي كان حكراً على القبائل التركية بينما الطريق الجنوبي الشرقي كان يؤدي إلى بلد الغزنويين الذين كانوا أعداء للسلاجقة. إن النقل على كلا الطريقين قد انهار، فقد تدهورت كل من مرو وبخارى وهرات وبلخ. فقد انخفضت حصة هذا الاتجاه من النقل إلى ٣٧٪ وهي أقل نسبة تصلها. كما تدهور النقل من الغرب كذلك كما يبدو من الشكل البياني رقم (٥). إن نسبة النقل القادمة من منطقة قزوين فقط تبدي زيادة ملحوظة وهذه في الواقع زيادة ظاهرية سببها تدهور الطرق الأخرى. أما جرجان واستراباد، وهما الجزءان الرئيسيان المكونان للخط البياني للمنطقة فإنهما بقيا كما كانا في الفترة

الماضية. وبالإجمال فإن حجم النقل انحط إلى أوطأ درجة لفترة ٣٢٥ سنة التي تغطيها الأشكال البيانية.

لم تصبح نيسابور نفسها ـ بالطبع ـ مدينة عديمة الأهمية. الواقع أنها كانت أوسع وأغنى مما كانت عليه خلال الفترات الثلاثة الأولى الموصوفة أعلاه. إن الخطوط البيانية التي تشير إلى سير النقل لا تتعلق بمدينة واحدة فقط، إنما تعكس حركة النقل التي كانت تنتهي عند نيسابور أو تلك التي تمر بنيسابور كنقطة على الطريق. وبينما كانت نيسابور تتنامى عملت الأحداث السياسية على الحط من المدن الشرقية العظيمة. وأخيراً فخلال الفترة التي كانت فيها نيسابور في أوج عظمتها الفكرية ـ وربما كانت أعظم مدينة مبدعة ثقافياً في العالم الإسلامي في تلك الفترة أصبح التطور الذي بدأ منذ تدهور العباسيين حقيقة واقعة مكتملة الجوانب. لقد انفصل الشرق عن الغرب ولم تعد خراسان ملتقى الطرق وأصبحت بدلاً من ذلك نقطة على الحدود الشرقية، تذبل وتضوي. وقد تلاشى الجسر الذي أقامه العرب والفرس في ترانسسكسونيا واتجهت أفغانستان نحو الهند. وهذا الاتجاه الجديد نحو الشرق لم يتغير منذ ذلك الحين. وهكذا فبالرغم من المناخ الفكري المزدهر في نيسابور نفسها فإن

النقـل عبر المـدينة قد جفت منابعه، وبذرت بذور التدهور الاقتصادي للمدينة.

رجارد و . بليت

(هارفارد)

علق حواشـــيه

الدكتور/ أكرم ضياء العمري

(×) لقد لاحظت بعض الركاكة في الصياغة أحياناً، وبعض الغموض اليسير، لكنني لم أتدخل في هذا الأمر لصعوبة الاتصال مع الأستاذ المترجم للاتفاق على التغيير المطلوب من ناحية، ولعدم وجود النص الانكليزي بين يدي الآن.

وقد وضع المؤلف كلمة «احصائية» فوق كلمة «كمية»، وقد اكتفيت بالإشارة إليها هنا دون تثبيتها في العنوان.

١ ــ إن مصطلح العصور الوسطى يرتبط بتقسيم التاريخ الأوربي، ويمثل حقبة مظلمة، وهي تقابل حقبة مضيئة في التاريخ الإسلامي، فينبغي عدم سحب ظل هذا المصطلح القاتم على التاريخ الإسلامي.

٢ ــ ينبغي التفطن إلى أن الأساس الزمني للطبقات ليس محدداً، صحيح أن الطبقات اللاحقة تكون غالباً متأخرة زمنياً عن الطبقات السابقة، ولكن يوجد تداخل كبير بين الطبقات من الناحية الزمنية ماعدا كتاب تاريخ الإسلام للذهبي، ففيه تساوى الطبقة عقدا زمنياً محدداً.

٣ ــ الصواب أنهم يمثلون فئة من السكان كانت تهتم بصورة خاصة برواية أحاديث الرسول ﷺ.

٤ ــ الواقع أن الفرضية ليست صحيحة، فإن رواة الحديث كانوا من طبقات اجتماعية متباينة ومعظمهم من الفقراء.

ويبدو أن الكاتب متأثر بمفهوم الطبقة الاجتماعية في العصور الوسطى الأوروبية، وهو يرى أن الأثرياء وحدهم يمكن أن تخلد أسماؤهم في الكتب مثل تلك العصور.

٥ ــ إن المؤلف يقرر هنا عدم معرفته للأساس الذي بنى عليه نظام الطبقات في كتابي الحاكم وعبد الغافر سوى الطبقتين الأولى والثانية والثالثة والطبقة الثامنة.

ومن المفيد أن أبين هنا أن أساس تنظيم الطبقات يقوم على اللقيا وليس على أساس الجيل ولا وفق تحديد زمني دقيق.

٦ ــ إن الكاتب متأثر بتاريخ الكنيسة الغربية حيث تبرز طبقة رجال الدين «الأكليروس» وهم يحتكرون السلطة الدينية، وحق تفسير النصوص الدينية ويتمتعون بتنظيم هرمي محكم.

أما في الإسلام فكل مسلم هو رجل دين ودنيا، وبوسعه الإدلاء بفهمه للنصوص الدينية إذا درس العلوم الإسلامية دراسة متقنة وملك الأدوات اللازمة فلا توجد في الإسلام طبقة رجال دين.

والذين يشير إليهم في البحث ليسوا طبقة رجال دين بل هم رواة للحديث، وبعضهم من الفقهاء، وكثير منهم قد تكون ثقافتهم الفقهية محدودة. ولكنهم امتازوا برواية الحديث فخصوا بذكر تراجمهم في الكتب المؤلفة في علم الرجال.

٧ ــ سبقت الإشارة إلى أن هذه الملاحظة ليست مطلقة، وذلك في التعليق رقم (٢).

٨ ــ سبقت الإشارة إلى مفهوم الطبقة الدينية في التعليق رقم (٩).

٩ ــ دأب الغربيون من المستشرقين وغيرهم على تسمية الدولة الإسلامية بالأمبراطورية الإسلامية ولا شك أن هذا المصطلح ينطبق على الدول التي مدت سلطانها على دول أخرى على سبيل الاستعمار لها والاستحواذ على خيراتها واستعلاء الشعب الحاكم عليها دون أن تتمكن من دمجها عقيدياً وثقافياً وحضارياً معها، أما بالنسبة للدولة الإسلامية فلا يصح

اطـلاق هذا المصطلح عليهـا . لأن المواطنين فيها جميعا متساوون أمام الشرع ، وتعامل سائر أقطارها بصورة متكافئة ، فلا استغلال ولا استعمار لصالح شعب أو قطر بعينه .

محتويـــات الكتـــاب

— تقـــديم للدكتور أكرم ضياء العمرى ٧
— مقدمـــــــة ١١
— الفصل الأول ١٥
— الفصل الثانى ٢٤
— علق حواشيه د. أكرم ضياء العمرى ٥٩

مطابع الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة